الافتتاحية

أمنيةٌ كُنّا نحلمُ بها، وهي أن تُعقد ندوات عن تاريخ المنطقة العربية وآثارها قبل الإسلام؛ لأنني أعتقد أن الإسلام هو قَطْفُ الحضارات القديمة، خلصها من الوثنية وكل ما يرتبط بالشرك، وجعلها حضارة موحدة توحيد إله لا توحيد معبودات. ومن هنا كانت الضرورة إلى كشف الغطاء عن تلك المرحلة، التي يزيد عمرها عن عشرة آلاف عام. لذا، فإن استجابة "مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية" لإقامة الندوة الأولى في منطقة من أعز المناطق الأثرية في بلادنا، هو تحقيق لهذا الحلم. والذي زاد من غبطتنا هو الصدى القوي الذي كان رجعًا لندائنا، الذي أرسلناه بوسائل مختلفة لنفر من العلماء البارزين، الذين اهتموا – ولا يزالون على اهتمامهم– بالمدينة العربية، نشأةً وتطوراً.

وكان جمعنا واجتماعنا في الجوف فرحة كبرى كنا متلهفين إليها. وقد عرض الباحثون، الممارسون للبحث العلمي والتنقيب الأثري، أبحاثًا جديدة في مجملها، عميقة في عرضها، محاولين الجمع بين التاريخ والآثار، في دوحة من دوحات العلم والمعرفة بالجزيرة العربية، هي "دار الجوف للعلوم". وقد قدمنا عرضًا وافيًا عن هذه الندوة، سيستمتع بقراءته المهتم بتراث الأمة وحضارتها. ولعل مما يَسُر كل مهتم أن ندوةً أخرى بعد سنتين ستعقد، بإذن الله، في المكان نفسه، وفي موضوع سوف يُعلن عنه في العدد القادم، إن شاء الله، وسيكون مرتبطًا بالتنقيبات الأثرية؛ لأننا لا نريد اجترار معلومات قد عُرفت، بل نهدف دائمًا إلى الجديد، لنعيد كتابة تاريخنا بمنطلقات جديدة من المعرفة والمكتشفات، التي تضيف جديدًا وتغير كثيرًا من المفاهيم، التي أكل عليها الدهر وشرب. والشكر أولاً وأخيرًا لله عزَّ وجلَّ الذي وفّقنا، ثم لأصحاب المؤسسة الذين بذلوا – ولا يزالون يبذلون – في سبيل الكشف عن تراث هذه الأمة.

*****

خمسون عاماً من العطاء؛ ذلك هو الشعار الذي اتخذته جامعتنا، جامعة الملك سعود، شعاراً لها وهي تحتفل بنصف قرن عاشته؛ فخرّجت أجيالاً من الشباب المسلح بسلاح العلم والمعرفة في جميع المجالات. فقد كانت جامعة الملك سعود، التي أُنشئت عام ١٣٧٧ هـ الموافق ١٩٥٧م، أول منارة للعلم ليس في المملكة العربية السعودية فحسب، بل في الجزيرة العربية قاطبة. لقد كانت مصدر إشعاع وتنوير في تلك الفترة، التي كان أبناؤها يبعثون إلى جامعات في بلاد عربية ليتزودوا بالعلم والمعرفة، ليعودوا إلى بلادهم ويتسنموا المراكز القيادية في بلادنا الناشئة، التي كانت تتعطش إلى كل من يعرف القراءة والكتابة لنشر العلم. وكان إنشاء مديرية المعارف أول شمعة أُضيئت لتبديد ظلام الجهل، ثم أنشئت وزارة المعارف وتسنم ذروتها صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبدالعزيز (خادم الحرمين الشريفين ملك البلاد رحمه الله، وأسبغ عليه شأبيب رحمته). فبقيادته لقطار المعرفة انتشرت المدارس الإبتدائية والمتوسطة والثانوية، في جميع أنحاء المملكة. وفي عهده أنشئت جامعة الملك سعود، ثم تلا ذلك إنشاء جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران، وجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وجامعة الملك فيصل في الدمام والأحساء .

إن جامعة الملك سعود تُعد في الصدارة من حيث إمكاناتها المكانية والأكاديمية، إذ كان لها فضل التوسع في مجالات التعليم الجامعي؛ فأنشأت لها فرعين: أحدهما في أبها تحوّل مؤخراً إلى جامعة باسم الملك خالد، والآخر في القصيم تحوّل مؤخراً إلى جامعة القصيم، ومع ذلك فجامعة الملك سعود تحتضن كليات أخرى ناشئة في مناطق أخرى. وقد بلغ عدد الكليات في الرياض ١٥ كلية ومعهداً، بلغ مجموع أقسامها وبرامجها العلمية حوالي ٩٠ قسماً وبرنامجاً .

كانت جامعة الملك سعود أول جامعة تفتح أبوابها للطالبات، منذ السنوات الأولى من إنشائها؛ فأصبحن يدرسن في كليات الآداب و الطب والعلوم والزراعة والحاسب الآلي والتربية والعلوم الإدارية واللغات وطب الأسنان والصيدلة، على مستوى البكالوريس والماجستير والدكتوراه. وهكذا نجد أن الجامعة أسهمت في تعليم المرأة، بالقدر الذي يجعلها تشارك بكفاءة مع الرجل، في بناء المجتمع السعودي.

لقد بدأت مسيرتي مع الجامعة منذ عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م حيث عُيّنتُ معيداً في قسم اللغة العربية في كلية الآداب. وكان يخوض غمار البناء رجل عُرف بحزمه ووطنيته وثقافته الواسعة، وهو معالي الأستاذ ناصر المنقور. كان فرحاً بنا نحن الطلائع الأوائل من المعيدين. وكان أعضاء هيئة التدريس -آنذاك- من قمم الفكر والمعرفة والعلوم في العالم العربي، انتقاهم رجل له اليد الطولى على هذه الجامعة هو الأستاذ الدكتور عبدالوهاب عزام، رحمه الله، حيث شارك في غرس بذرة هذا البناء، الذي أصبح شامخاً نعتز به نحن الذين شاركنا -ولله الحمد- بعد عودتنا في البناء. وخلال سنة الإعادة عاد من بريطانيا شاب يحمل درجة الدكتوراه، وهو أول سعودي يحمل هذا اللقب العلمي. فكنا نجلس حوله ونستلهم من تجربته في بريطانيا، ثم تسلم مقاليد إدارة الجامعة؛ إنه معالي الأستاذ الدكتور المؤرخ عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر. وقد عُرف الدكتور الخويطر بحزمه، إذ استطاع أن يضع الجامعة على الطريق السليم، وأن يسير بها بتؤدة حيث أصبحت هناك أنظمة ولوائح لازالت آثارها واضحة حتى الآن. وعاد الشباب الذين ابتعثهم بشهادات الدكتوراه، فاحتفى بهم ومدَّ لهم يد العون والتشجيع. وفي عهده تسلم العائدون عمادات الكليات، فكنت أول وكيل، ثم أول عميد لكلية الآداب. ويشد الخويطر على أيدينا، ومنه استفدنا كيف تكون الإدارة الحازمة؛ ثم سلَّمَ راية الإدارة إلى أحد هؤلاء العائدين، وهو الأستاذ الدكتور عبدالعزيز بن عبدالله الفدا، الذي كان له فضل الاستمرار في الدراسات والتخطيط لبناء مقر للجامعة. فوضع مخططاً طموحاً شارك في وضع تصوره كل عضو من أعضاء هيئة التدريس. وكان الحد الأعلى المقّدر لعدد الطلاب الذين سيدرسون في هذا المقر لا يزيد عن خمسة عشر ألف طالب، ولكن القَدْر فاق الخمسين ألفا أو كاد. وفي زمن إدارته للجامعة، بدأت الجامعة تسلك طريقاً جديداً؛ فكان الاحتفال بمرور خمسة عشر عاماً على إنشاء الجامعة، فكان أول احتفال تشهد مثله الجامعة، بل المملكة؛ ولأول مرة يشاهد الناس العمداء والأساتذة والطلاب وهم يسيرون في صفوف متراصة، وهم يلبسون عباءات صممت خصيصاً بأطراف ملونه، لكل كلية لونها. فكان اللون الأبيض لكلية الآداب. تلك فرحة كبرى عاشتها الرياض وعاشها منسوبو الجامعة، خاصةً أن الاحتفال رَأَسَهُ صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبدالعزيز (خادم الحرمين الشريفين رحمه الله). كما بدأت الجامعة في عقد المؤتمرات والندوات، فكان مؤتمر رسالة الجامعة أول مؤتمر يعقد في الجامعة عام ١٣٩٤هـ ثم توالت المؤتمرات والندوات العلمية. وتعد الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، التي عقدت ١٣٩٧هـ، أول انطلاقة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية وأثارها. وكان موضوعها عن " مصادر تاريخ الجزيرة العربية". والندوة الثانية عام ١٣٩٩هـ، وكانت عن " الجزيرة العربية قبل الإسلام". أما الندوة الثالثة في ١٤٠٣-١٤٠٤هـ، فكانت عن " الجزيرة العربية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين". وصدر عن هذه الندوات الثلاث خمسة مجلدا ت لا تزال تعد مرجعاً للباحثين حتى وقتنا الحاضر. وسارت قافلة المؤتمرات والندوات العلمية في جميع الكليات والأقسام في مختلف التخصصات. ويكفي أن نشير إلى أنه ما بين الأعوام ١٣٩٤هـ - ١٤١٨هـ، عُقد خمس وستون مؤتمراً وندوةً عالمية، في رحاب جامعة الملك سعود.

وقد تسلم الراية في الجامعة الأستاذ الدكتور منصور بن إبراهيم التركي، فكانت فترته مرحلة انطلاقة تاريخية، إذ فيها بُنِيَ مقر الجامعة بكلياتها ومعاملها وإداراتها ومطابعها ومكتباتها. كما وجدت الأبحاث العلمية فرصتها للتقدم والازدهار. وكان مما صحب ذلك عودة عدد كبير من المبتعثين، ففتحت أقسام وأضيفت تخصصات فرضتها ظروف العصر، ولعل أبرزها إنشاء عمادة خدمة المجتمع والتعليم المستمر، الذي قُدِّر لي أن أديره قرابة عشر سنوات منذ ١٤٠٢هـ. وكانت استجابة الدكتور التركي لتنفيذ كل مشروع أو بحث علمي، بكل ترحاب وأريحية، خير مساعد على التفاعل في جميع المجالات. وفي عهده كان الاحتفال بمرور ربع قرن على مسيرة الجامعة، فكان احتفالا يهيجا سُخرت من أجله الوسائل والخبرات جميعها. وشرَّف ذلك الاحتفال صاحب الجلالة الملك خالد بن عبدالعزيز، رحمه الله وفيه أمر جلالته بالعودة إلى الاسم القديم للجامعة: "جامعة الملك سعود"، بدلاً من مسمى "جامعة الرياض".

وتسلم الراية من بعده زميلنا الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الضبيب في شعبان ١٤١٠هـ، وذلك قبل خمسة شهور من غزو الكويت. ولنا أن نتصور الظروف التي أحاطت بكل شؤوننا التعليمية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية. ومع ذلك حاول الدكتور الضبيب عمل ما يستطيعه في الرفع من مستوى البحث العلمي وأنظمة الترقية العلمية، وفك التداخل بين كليتي الآداب والعلوم،

من جهة، وكلية التربية، من جهة أخرى. وإنشاء كلية اللغات وغير ذلك من الأنشطة العلمية، على الرغم من شدة الظروف التي أشرت إليها وما تلاها من ظروف ,وخلال تولي الدكتور الضبيب إدارة الجامعة، اختارني خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، رحمه الله، عضواً في الدورة الأولى لمجلس الشورى وذلك في عام ١٤١٤هـ.

وفي غرة شهر ربيع الأول عام ١٤١٦هـ تسلم الراية الأستاذ الدكتور عبدالله بن محمد الفيصل، ولا يزال. وقد استطاع الدكتور الفيصل أن يخطو بالجامعة خطوات إدارية، تتناسب مع الفترة التي تحكمها الأنظمة واللوائح. وقد انشئت مراكز للأبحاث والاستشارات، وانتعشت الدراسات العليا، وانتشر أعضاء هيئة التدريس مستشارين في الوزارات الحكومية ومنشآت القطاع الخاص، للخروج بالجامعة من أسوارها ونقل الخبرة إلى القطاعات التي تحتاجها مباشرة. وها هو ينتقل بالجامعة من نصف قرن الى نصف قرن آخر، وقد بلغ عدد الطلاب قرابة ستين ألفاً أو يزيدون. وأصبح للطالبات كيان بارز يمثل قرابة ٥٠٪ في المائة من جسم الجامعة.

أظن أن الجامعة بعد هذه المسيرة في حاجة إلى وقفة في التأمل، ومحاسبة النفس، ومعرفة الجوانب، التي نجحت فيها، والأخرى التي أخفقت فيها، وأسباب النجاح ودواعي الإخفاق. لابد من دراسة شاملة تقوم به جهة محايدة غير متأثرة بعوامل الارتباط بالجامعة؛ دراسة تعتمد على الصدق في الرؤية والتحليل، يُقدم لها المناهج منذ البداية حتى نهاية الخمسين عاماً، ومستوى أعضاء هيئة التدريس، وإنتاجهم العلمي، والنتائج السنوية للطلاب لكل قسم وتخصص، ودور الجامعة في المجتمع، وأصداء الجامعة في العالم، وسمعة مبعوثيها في الخارج، والمقارنة بينها وبين الجامعات المحلية والعربية والعالمية الماثلة، وخاصةً الجامعات التي نشأت في الفترة نفسها، بل في العام نفسه، مثل جامعة أسيوط، التي كان أول رئيس لها هو الأستاذ الدكتور سليمان حزين، عليه رحمة الله. فهل لنا أن نتعشم في قيام الجامعة بهذه المهمة الصعبة والصحية في الوقت نفسه ؟ لنضع إستراتيجية جديدة لخدمة المجتمع، والرفع من مستوى البحث العلمي، وما ستكون عليه الجامعة خلال خمسين عاماً قادمة.

*****

"ب. س. ج. إسرلين، الذي مات عن عمر يناهز التسعين عامًا، كان عالمًا في فقه اللغة، وعالم آثار، ومؤرخًا، وصاحب معرفة موسوعية في ثقافة ولغات الشرق الأدنى القديم". هذا هو مطلع التأبين الذي نشرته عنه صحيفة الديلي تلجراف البريطانية في الثامن والعشرين من نوفمبر ٢٠٠٥م، وهذا هو ما عرفناه عن هذا العالم الجليل الموسوعي الثقافة. كان أول لقاء لنا به في بداية العام الدراسي عام ١٩٦١م، عندما ابتعثنا من جامعة الملك سعود إلى قسم الدراسات السامية بجامعة ليدز، في مقاطعة يوركشاير. كان هذا القسم، وقتها، في بيت من البيوت القديمة، لا يشتمل إلا على غرف محدودة؛ ولكن بعد بضعة أشهر انتقل القسم إلى المبنى الجديد بكلية الآداب. لقد أشرف د. إسرلين على عدد من طلاب الدراسات العليا من السعوديين في المجالات التالية: الآثار والكتابات القديمة والأدب العربي، والتاريخ العربي الحديث، والتاريخ البيزنطي، واللهجات العربية المعاصرة، والآثار الإسلامية وطرق الحج. وكان مبدعًا في إشرافه وتوجيهه لطلابه. كان يعلّمهم المنهج العلمي السليم، ويقسو عليهم أحيانًا ويحنو عليهم كثيرًا. وأحمد له أن وجهني من طالب يأمل في أن يصبح متخصصًا في الأدب الجاهلي، إلى متخصص في الآثار والكتابات القديمة، وفرق بين التخصصين. وعدت إلى بلادي وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى لأنني غيّرت التخصص، الذي بعثت من أجله؛ ولكنني -ولله الحمد- فتحت لي الأبواب وأصبحت أشعر بنعمة تلك الأيام، التي قضيتها مع أستاذي أسرلين في شمالي بريطانيا، ثم في صقلية؛ وأخيرًا أرسلني إلى أستاذته كاثلين كينيون لتشرف على تلميذ تلميذها. ولعله كان ينظر إلى بعيد ويبعث بطالبه إلى المملكة العربية السعودية، التي كانت تفتقر إلى هذا التخصص في هذا العلم، فقد تستفيد منه ولو بعد حين، وقد تحققت آماله.

رئيس هيئة التحرير